الترجمة الذاتية وفن الرحلة
في « التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا » (1)

بقلم : صالح المغيربي

يلاحظ في العنوان بصيغته الحالية (2) عنصران هما التعريف والرحلة وكلّ منهما يمثل لونا أدبيّا خاصّا ، له مقوّماته ومميّزاته وقد جمع المؤلف بينهما في كتاب واحد فرمينا من هذا المقال إلى الإجابة عن سؤالين هما : كيف عرّف ابن خلدون بنفسه وما هي علاقة هذا التعريف بالرّحلة وأثره فيها ؟

التعريف في مفهومه الأصلي هو الإعلام أو الوسم (3) ومن عرّف بنفسه من الأعلام المسلمين قديما اكتفى غالبا برسم خطوط حياته الكبرى من ولادة ودراسة ومناصب وبتعديد مؤلفاته دون تحليل أو كشف عن باطنه . فهل يمكن اعتبار مثل هذا التعريف ترجمة ذاتية ؟ نعم ، شريطة أن يكون التعريف سردا لا وصفا وألاّ يفضي إلى رسم إذ لابدّ من امتداد زمنيّ وحركة يكشفان

(1) تحقيق محمد تاويت الطنجي — مطبعة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة 1951/1370 .
(2) أصل العنوان « التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب » أي كتاب العبر . ولئن حذف ابن خلدون عبارة « مؤلف هذا الكتاب » الدالة على التبعية وأضاف « ورحلته غربا وشرقا » بعد أن زار مصر والشام ، فقد ورد في بعض الجمل من النص ما يثبت هذه التبعية التعريف ص 229—230—233 .
(3) لسان العرب . مادة ع ر ف .

عن حياة صاحبه ولو في خطوطها الكبرى وأن يكون أخيرا هذا التعريف صادقا (4) .

هذه الشروط الثلاثة أساس الترجمة الذاتية وهي تكوّن إطارا عامّا يترك المجال فسيحا لأشكال مختلفة منها شكل التعريف ومنها الاعترافات والمذكّرات واليوميّات كما يترك المترجم عن نفسه حرّا في حصر ترجمته في صفحة واحدة أو بسطها في عدة أسفار .

فكيف عرّف ابن خلدون بنفسه ؟ لنجيب على هذا السؤال علينا أن نقف على مادّة « التعريف » لنضبط علاقتها بالترجمة الذاتية . إنّ بعض هذه المادّة هي الكتب (5) التي قال عنها : « وإنّما كتبت هذه الأخبار وإن كانت خارجة عن غرض التعريف بالمؤلف لأنّ فيها تحقيقا لهذه الواقعات وهي مذكورة في أمكانها من الكتاب (يعني العبر) فربّما يحتاج الناظر إلى تحقيقها في هذا الموضع » (6) وكذلك المعلوماتُ التاريخيّة التي يقطع من أجلها غرضه الأصليّ فيبسط مثلا تاريخ بجاية (7) من عهد الموحّدين إلى عهد أبي عنان المريني ويبيّن في موضع اخر كيف انساق الملك للأتراك (8) حتى وصل إلى برقوق الظاهر ثمّ إلى الطّاطار (9) الذين استقرّت الدّولة الإسلاميّة فيهم . هذه الكتب التي أطلق عليها كلمة أخبار وهذه المعلومات التاريخيّة فضلا على أنها تسجيل لأحداث فرضتها صفة المؤرخ على المترجم لنفسه هي في نظرنا تعبير عن الصّلة

(4) إنظر مقال Starobinski في مجلة Poétique عدد 3 – 1970 .
(5) نسخة كتاب ابن الخطيب إلى سلطانه ابن الأحمر (التعريف ص 147 .....152) ونسخة كتاب كتبه ابن الخطيب عن سلطانه ابن الأحمر إلى سلطان تونس (ص 156...209) ورسالة من كاتب سر ابن الأحمر (ص 262...274) وأخرى من قاضي الجماعة بغرناطة (ص 274... 277) إلى ابن خلدون وهو بمصر .
(6) التعريف ص 278 .
(7) التعريف ص 94–95 .
(8) التعريف ص 315...325 .
(9) التعريف ص 351...365 .

المتينة بين ترجمة الرّجل الذاتية وتاريخ المغرب أولا وتاريخ الأمّة التي ينتسب إليها ثانيا . أمّا العلاقة الأولى فهي جليّة وسنتعرّض إليها بعد حين وأمّا الثانية فلا أدلّ عليها من تحسّره وتألّمه لمّا بلغه فساد المصانع والسّقايات المعدّة لوجه الله ومحاجّ بيته (10) ومن تشنيعه بصنيع الطّاطار لمّا نهبوا مدينة دمشق وأضرموا النّار التي اتّصلت بالجامع الأعظم فهدّمت سقفه وحوائطه (11) وفي هذا المضمار أيضا يستبشر ابن خلدون باسترجاع الحصون التي خلّصها ابن الأحمر من النصارى ويذيع الخبر في الملإ سرورا بعزّ الإسلام (12) ثم هو يتعفّف عن الدّخول إلى القمامة الكنيسة الكبرى ببيت المقدس « إذ هو بناء أمم النصرانية على مكان الصّليب بزعمهم » (13) ولا غرابة في موقفه هذا من النصارى إذ أنّ بني خلدون قد غادروا إشبيلية إلى العُدوة خشية سوء العاقبة من النصارى وأنّ الحروب الصليبيّة قد حدّت من تسامح المسلمين وإذ أنّ الأندلس أو ما بقي منها محلّ صراع متواصل بين المسلمين والنصارى .

أمّا المراسلة بينه وبين ابن الخطيب صاحب الإحاطة (14) فيقول عنها : « وإنّما طوّلت بهذه المخاطبات وإن كانت فيما يظهر خارجة عن غرض الكتاب (يعني التعريف) لأنّ فيها كثيرا من أخباري وشرح حالي » (15) والحقيقة أنّ هذه المخاطبات تخبرنا عن ابن الخطيب وعن أحوال تونس وبجاية وفاس وما حلّ بالمشرق (16) أكثر ممّا تخبرنا عن ابن خلدون لأنّه سبق لصاحب « التعريف » أن ذكر المصيبة التي حلّت به وبأخيه على يد أبي

(10) التعريف ص 126–127 (رسالة ابن خلدون الأولى إلى ابن الخطيب) .

(11) التعريف ص 374 .

(12) التعريف ص 124–125 .

(13) التعريف ص 350 .

(14) رسائل ابن الخطيب : التعريف ص 104...115 وص 115...122 وص 128...130 وص 209...215 رسالتا ابن خلدون : ص 123...128 وص 140...147 .

(15) التعريف ص 130 .

(16) رسالة ابن خلدون الأولى .

حمّو وأن بيّن موقفه من تنكّر صاحب الإحاطة له بالأندلس (17) فأخباره في رسائله إلى ابن الخطيب قليلة أمّا حاله فهي مرتبطة بالأحداث التاريخية أو بخيبته في المجال السّياسي ففي رسالته الأولى يعبّر في آن واحد عن ضيق نفسه للمصيبة التي حلّت به وبأخيه وعن استبشاره باسترجاع الحصون التي خلّصها ابن الأحمر من النصارى وفي الرّسالة الثانية (18) يدفعه اليأس من بلوغ مطامحه السّياسية إلى أن يهنىء ابن الخطيب على الخلاص من ورطة الدّول وعلى التوق إلى ما عند الله بألفاظ صوفيّة مثل المجاهدة والرّياضة وإلهام الحقّ والمقامات والانكشاف ، متأثرا بموجة الصّوفيّة التي يرجع عهدها إلى صلاح الدّين الأيّوبي بمصر والشام (19) وإلى أواخر دولة الموحّدين بالمغرب (20) إلاّ أن هذا التأثر لم يبلغ به حدّ الزّهد في الدّنيا فلم يفكّر في الانقطاع عنها حتّى لمّا انعزل عن السياسة بمصر وإن هو تولّى الخوانق ففي تولّيها توسعة عليه (21) .

ومن جهة أخرى ضمّن ابن خلدون رسائل ابن الخطيب لأنّه يعدّ صاحبها « آية من آيات الله في النظم والنثر .... لا يساجل مداه » (22) ، فأقرّ ذوق العصر وهو أنّ الرّسالة فنّ وغاية في حدّ ذاتها لذلك يستغلّ ابن الخطيب مناسبة تهنئة ابن خلدون بمولود ليعرض براعته في الإنشاء وإذا الاهتمام بالكمال الشكلي يحلّ محلّ التعبير عن العلاقات البشريّة خوفا من الابتذال وحرصا على

---

(17) يقول ابن خلدون في التعريف ص 91 : « وارتمض ابن الأحمر لما استأذنته في الارتحال وعميت عليه شأن ابن الخطيب إبقاء لمودته» أي لمودة ابن الخطيب ويؤكد موقفه هذا في رسالته الثانيـة .

(18) التعريف ص 144–145 .

(19) انظر في الأسباب التي كانت تحدو بأمراء الترك أن يكثروا من بناء الخوانق : المقدمة طبعة دار الكتب – بيـروت 1967 ص 778–779 و Henri Laoust في كتابه Les Schismes dans l'Islam ص 228 .

(20) انظر Henri Laoust نفس المرجع ص 236 .

(21) التعريف ص 313 : يقول ابن خلدون في شأن خانقان بيبرس « فكان رزق النظر فيهـا والمشيخة واسعا لمن يتولاه .... فولاني السلطان مكانه (أي الشيخ المتوفي) توسعة علي .

(22) التعريف ص 155 .

السّمعة لأنّه لم يكتب لصديق بل كتب لجمهور طبقته ولم يكن ابن خلدون أقلّ حرصا على سمعته في هذا الميدان فتكلّف في رسالتيه إلى ابن الخطيب وانتحل السّجع في خطبه يوم جلوسه للتدريس بالمدرسة القمحيّة (23) والمدرسة الظاهريّة (24) ومدرسة صلغتمش (25) إلاّ أنّه اختار الكلام المرسل في إنشاء مخاطبات أبي سالم المريني لمّا تولّى كتابة سرّه والترسيل عنه لسبب عمليّ هو أنّ الكتابة سجعا تخفى على أكثر النّاس (26) .

أمّا بقيّة مادّة « التعريف » فإنّ علاقتها بالترجمة الذّاتية واضحة . ففي مرحلة أولى تحدّث عن نشأته وأيّام شبابه (27) وممّا يلفت الانتباه في هذه المرحلة إلحاحه على عوامل ثلاثة : نسبه أو منزلة عائلته ، تكوينه وثورة أعراب القيروان على أبي الحسن المريني .

يعرف المؤلّف بالبيت الذي ينتمي إليه مستندا إلى بعض المصادر الأندلسيّة (28) متوخّيا لهجة خالية من التعصّب إلاّ أنّ هذه الطريقة الموضوعية ظاهرا لا تترك مجالا للشكّ في أنّ الأخبار منتقاة تبرز شرف محتده دينا (30) وعلما (30) ناهيك أنّ ابن حيّان القرطبي (377—469هـ) يقول عن آل خلدون في المقتبس في تاريخ الأندلس (31) : « وبيت بني خلدون إلى الان

(23) التعريف ص 280...285 .
(24) التعريف ص 286...293 .
(25) التعريف ص 293...310 .
(26) التعريف ص 70 .
(27) التعريف ص 1...55 .
(28) التعريف ص 1...7 .
(29) انظر خبر وفادة جده وائل بن حجر على الرسول ص 2 وما قاله عن واقعة الزلاقة التي استشهدت فيها طائفة كبيرة من بني خلدون ص 8 .
(30) يذكر من أجداده أبا مسلم عمر بن محمد الحكيم المشهور بالأندلس (توفي سنة 449هـ) وكان من تلاميذ مسلمة بن أحمد المجريطي . ص 3و4 .
(31) نشر الأب ملشور أنطونيه جزءا من كتاب « المقتبس » . انظر دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الجديدة . مادة ابن حيان ص 812—813 .

بإشبيلية نهاية في النباهة ولم تزل أعلامه بين رياسة سلطانية ورياسة علميّة » (32). ويمتدّ رأي أبي حيّان في الزمن فإذا العقب بتونس في عهد الدّولة الحفصيّة أحسن خلف لأحسن سلف وإذا التاريخ يدعو المؤلف لاستلام المشعل إن كان له أهلا وهو جدير به ولا أدلّ على ذلك من تكوينه وسعة ثقافته . فقد نشأ حريصا على تحصيل العلم (33) وتتلمذ على عديد من الشيوخ فأخذ عنهم العلوم اللسانية والنقلية والعقلية وترجم لهؤلاء الشيوخ فعيّن مسقط رأس الواحد منهم وضبط تاريخ ولادته ووقف على فترات من حياة بعضهم لاتّصالها بواقعات تاريخيّة (34) وذكر اختصاص كلّ فرد معدّد الكتب التي سمعها عنه ، مستشهدا بقصائد الشعراء منهم أو بنتف منها . لا شكّ أنّه حرص على تسجيل هذه التراجم (35) لأنّه مدين لأشياخه بتكوينه (36) ولأنّه يعدّهم مفخرة العصر بالمغرب فخشي أن تلحقهم يد النسيان ولكن كيف كانت طباعهم وما هي درجة تأثير كلّ واحد منهم عليه إنسانيا وما هو نوع هذا التأثير ؟ لا جواب عن هذه الأسئلة في التعريف .

وفيما يخصّ الثورة على أبي الحسن المريني التي انتهت بخروج هذا السّلطان من تونس مرفوقا بمن بقي من الشيوخ الذين قدموا معه إلى إفريقية فقد كان لها الأثر البعيد في نفس ابن خلدون إذ حلّت الحيرة محلّ الطمأنينة خاصّة وقد انهارت الدّولة الحفصيّة إلى درجة أنّ الحاجب ابن تفراكين أصبح هو الماسك لزمام الحكم بعد رحيل السّلطان المريني لذلك (37) غادر تونس

(32) التعريف ص 5 .
(33) التعريف ص 8 .
(34) انظر مثلا ترجمة بني الإمام ص 29...31 وعبد المهيمن ص 39—40 .
(35) التعريف ص 15...55 .
(36) في تكوينه انظر مقال نصيف نصار : ابراهيم الآبلي شيخ ابن خلدون في Studia Islamica — 1964 — عدد 20 — ص 103...114 .
(37) يؤكد ابن خلدون أنه فر من صف سلطان تونس المنهزم في معركة ضد أمير قسنطينة سنة 753 رغبة في اللحاق بأشياخه بفاس (التعريف ص 34) ولهذا التعليل وزنه إلا أن الظروف السياسية هي التي حملته خاصة على مغادرة تونس في نظرنا وإن لم يذكرها .

قاصدا فاس عاصمة بني مرين فبدات الرّحلة التي هي سلسلة من المغامرات تتخلّلها فترات عزلة ، عَبْرَ المغرب وانتهت به إلى مصر التي سمع عن عاصمتها العجب وهو بفاس (38) وإلى ملاقاة تيمورلنك خارج دمشق (39) . ولم يكن في هذا مبدعا إذ جرت العادة أن يسعى الرّجل من الخاصّة إلى التقرّب من الخليفة في أوّل الأمر ثمّ من أعظم الملوك لمّا انقسمت المملكة الاسلاميّة ولكنّ الذي اختصّ به هو مغامراته بالمغرب الأوسط . فقد استغلّ الاضطراب في هذه الجهة ليحاول تحقيق ما تطمح إليه نفسه من « رياسة سلطانية » فنسج خيوطا تربطه بعدد من ذوي السّلطان في آن واحد (40) وناصر أميرا على آخر ثمّ تخلّى عنه ليلجأ إلى خصمه إذ العلاقة عنده تقوم على المصلحة الخاصّة (41) . وفي هذه المرحلة من الترجمة الذّاتية تتجلّى لنا بعض الملامح من شخصيّة ابن خلدون رغم أنّه ركّز اهتمامه على سرد الأحداث والوقائع والدّسائس وعلى المناصب التي شغلها .

— إنّه معتزّ بنفسه وقدأ ثّر هذا الاعتزاز في نظرته إلى ذاته وإلى غيره فردّد انّه إذا نزل على أمير عربيّا كان أو أعجميّا (42) مسلما كان أو نصرانيّا (43) أكرم وفادته وإذا كلّف بمنصب قام به على أحسن وجه (44)

---

(38) التعريف ص 248 — وكذلك المقدمة — طبعة مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني — 1967 — ص 644 .

(39) انظر عن هذه الملاقاة : Fischel (Walter) Ibn Haldun and Tamerlan — 1952

(40) بفاس قام ابن خلدون بخدمة أبي عبد الله بن الأحمر وابن الخطيب لما التجآ إلى السلطان أبي سالم (التعريف ص 75) وعاقد الأمير أبا عبد الله صاحب بجاية المخلوع على الفرار والرجوع إلى سلطنته على أن يواليه الحجابة (ص 96—97) .

(41) لم نجد في التعريف ما يدفع إلى الظن أن ابن خلدون كان يسعى إلى إصلاح المغرب اعتمادا على عصبية قوية كما افترض الأستاذ الطالبي في فصله بدائرة المعارف الاسلامية الطبعة الجديدة مادة ابن خلدون .

(42) يذكر ابن خلدون أن تيمورلنك سأل عنه القضاة والفقهاء الذين خرجوا يطلبون منه الأمان (ص 368) .

(43) يؤكد المؤلف أن ملك قشتالة طلب منه لما سافر إليه عن ابن الأحمر المقام عنده وعرض عليه أن يرد له تراث سلفه بإشبيلية (ص 85) .

(44) انظر مثلا ص 233 وص 248 .

وإذا تولى التدريس انثال عليه الطّلبة (45) وأنّه أعلى كلمة الحقّ عند تولّـي القضاء رغم عداء الحاشية (46) . امّا من احتكّ بهم في بلاطات السّلاطين فهم الحسدة السّعاة (47) وكان موقفه منهم الاحتقار غالبا فلم يعبّر عن مرارة نحوهم ، والشهامة احيانا إذ قابل تنكّر ابن الخطيب بصدر رحب . إلاّ انّه اعترف أنّ طغيان الشباب دفعه إلى المبالغة في الطّموح (48) وأنّ الغفلة كانت سبب سجنه في عهد ابـي عنان (49) وانّه وقّع نسخة فتوى تجيز قتل الملك الظاهر رغم انّها تخالف الشرع (50) وذلك تحت الضغط .

— وهو من جهة أخرى موزّع بين الرّياسة السّلطانية والرّياسة العلميّة . يؤكّد في مواضع عديدة من الكتاب انّه يؤثر الانقطاع للمطالعة والتّدريس على الخوض في احوال الملوك (51) ويضيف في الصفحة الثالثة بعد المائة من « التعريف » : «لو تركت له» (أي للعلم) يريد بذلك أنّ الظروف هي التـي أرغمته على شغل المناصب . لكنّ هذه الصّورة لها ما يخالفها في الكتاب وما يثبت أنه كان شغوفا بالرّياسة السّلطانية كبير الطّموح في هذا الميدان «يسمو إلى أرفع ممّا كان فيه » (52) ولعلّ احسن دليل على ما قدّمناه هو أنّه لمّا دخل بجاية لتولّـي الحجابة كان اليوم عنده يوما مشهودا إذ « احتفل السّلطان لقدومه ..... وتهافت أهل البلد من كل أوب يمسحون اعطافه ويقبّلون يديه » (53) . فهل يعنـي هذا التناقض أنّ ابن خلدون غير صادق فيما قاله

(45) انظر ص 254—347—383 .

(46) انظر ص 347—383 .

(47) انظر ص 76—77 وص 99 و ص 99 وص 227 وص 233—234 . وفي سبب العداوة بين ابن خلدون وشيخ الفتيا وإمام الجامع بتونس محمد بن عرفه انظر رأي R. Brunschvig في : La Berbérie Orientale sous les Hafsides الجزء الثاني ص 391 فما بعد .

(48) انظر ص 77 .

(49) انظر ص 67 .

(50) انظر ص 331 .

(51) التعريف ص 103—134—224—226—229 .

(52) التعريف ص 77 وقد غيرنا الضمير .

(53) التعريف ص 98 وقد غيرنا الضمير .

عن تعلّقه بالعلم ؟ إنّه في الحقيقة يعبّر عن صراع باطني بين مطامحه السّياسية وخيباته . فإذا خاب ظنّه في سلطان أو خشي مغبّة الخوض في أحوال الملوك أكّد عزمه على « النزع عن غواية الرّتب » ليتفرّغ للعلم وقد تفرّغ له دارسا(54) ومدرّسا (55) ومؤلفاً (56) بغية الشهرة العلميّة ثمّ يعاوده الأمل فيغامر من جديد في ميدان السّياسة سعيا لتحقيق الشهرة السّلطانية .

– إلاّ أنّه رغم شدّة طموحه السّياسي لم يكن متهوّرا بل كان حذرا متملّقا (57) يتّخذ من الشّعر الذي يعدّه صناعة (58) وسيلة للتقرّب أو الاستعطاف . ومن مظاهر حذره أنّه فضّل أن يقوم أخوه مقامه في خدمة أبي حمّو (59) وأنّه انعزل بفاس مدّة سنتين (774–776ه) وأنّه مكّن سلطان قسنطينة من بجاية رغم أن جماعة من أهل البلد « طلبوا منه (وكان حاجبا) القيام بالأمر والبيعة لبعض الصّبيان من أبناء السّلطان » (60) ويرجع هذا الحذر إلى أنّ تجربته علّمته أنّ أحوال الدّول متقلّبة بالمغرب . وفي المشرق ازداد الحذر قوّة فاكتفى بتولّي القضاء والخوانق ولمّا حاصر تيمورلنك دمشق خرج متدلّيا لطلب الأمان إذ اتّضح له أنّ الطّاطار أصحاب عصبيّة وأن عددهم كثير جدّا و« على الكثرة يكون قدر الملك » . أليس هذا الاستنتاج

(54) لم يذكر ابن خلدون الكتب التي طالعها بفاس وغرناطة على أننا لا نشك في أنه استفاد من خزائن كتب بني مرين وبني الأحمر .

(55) بعث ابن خلدون همته على التدريس ببجاية (التعريف ص 98) وبسكره (ص 103) وبفاس (ص 224) وبتلمسان (ص 227) وبتونس (ص 232) وكلف به بمصر (ص 235–286–293)

(56) لم يذكر من مؤلفاته إلا كتاب العبر – انظر في ظروف تأليفه : ص 229–230و233 وانظر عن بقية مؤلفاته مقال الأستاذ الطالبي . المصدر المذكور وكتاب نصيف نصار La Pensée réaliste d'Ibn Khaldun – 1967 – ص 19...21 وص 26...28.

(57) يقول ابن خلدون : « وأفهمني (أي السلطان عبد العزيز المريني) أنه يروم تملكها (أي بجاية) فهونت عليه السبيل في ذلك فسر به – التعريف ص 134 .

(58) لا يعد ابن خلدون الصناعة عيبا وهو في ذلك يوافق ذوق العصر ويقول : « ... إذ المعاني موجودة عند كل واحد في طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضي .... وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج إلى تكلف صناعة » المقدمة طبعة بيروت 1967 – ص 1111 .

(59) التعريف ص 103 .

(60) التعريف ص 99 .

وليد عزلته بقلعة بنـي سلامة أين تفرّغ للتأمّل في قيام الدّولة ونموّها ثـمّ انهيـارهـا ؟

هذه هي الطريقة التـي اختارها ابن خلدون للتعريف بنفسه وهـي بعيـدة عن التّحليل الباطنـي والاعترافات (61) وما أمكننا استخراجه من جوانب شخصيّته (62) بوصفه فردا من الأمّة الاسلامية ومغامرا سياسيّا وأديبا شاعرا غير كاف ليكشف لنا عن باطنه وذلك لأنّ المؤلف قصد بكتابه أن يعرض علينـا مظاهـر ذاتـه التـاريخيّـة (Etre historique) كما يقـول نصيف نصّار (63) هذه الذّات المتوغّلة في حياة عصره السّياسية والثقافية والمرتبطة بتاريخ المغرب والمشرق . لذلك نراه يسهب في الكلام عن نسبه وعن تـراجم شيوخه ويضمّن كتبا ومعلومات تاريخيّة خارجة في الظاهر عن غرض التعريف كما يضمّن المراسلة بينه وبين ابن الخطيب ويركّز اهتمامه على أحوال الملوك والدّسائس والوقائع سواء أكان له ضلع فيها أم لا ، ويمـرّ سريعا بأحداث لا شكّ أنّها هزّت كيانه مثل موت والده أو غرق عائلته ويهمل التفاصيل الملموسة من حياته الشخصيّة وإذا استثنينا اعتزازه بنفسه المؤثّر في نظرته إلى شخصه وإلى الآخرين من أصحاب الوظائف السلطانية أو الدينيّة وإخفاء السّبب الحقيقيّ لخروجه من تونس وخروجه إلى تيمولنك(63) * نستطيع أن نقول إن عنصر الصدق متوفّر في « التعريف » باعتبار أنّ لكـلّ

---

(61) إلا تلك التي ذكرناها وهي قليلة لا ترتكز على مرجع أخلاقي .

(62) تحالف في هذا الأمـر رأي المستشرق G. vou Grunebaum الذي يـرى أن التـراجم الذاتية العربية باستثناء المنقذ من الضلال تقتصر على ذكر الفترات الهامة من ولادة ودراسة ومناصب فتبقى الشخصية محجوبة تسترها الأحداث – انظر كتابه L'Islam médienal –1962– ص 295 وما بعدها .

(63) نصيف نصار – نفس المصدر ص 12 .–

(63) * زعم ابن خلدون أن خروجه من دمشق متدليا إلى تيمورلنك كان بعد اتفاق رأي القضاة والفقهاء على طلب الأمان وخروج بعضهم إلى ملك الطاصار متدلين (التعريف ص 367–368) والراجح عندنا أنه خرج وحده دون استشارتهم وهذا يؤكده المقريزي في السلوك سنة 803 – ورقة 238ب نسخة فـاتح – .

مترجم عن ذاته وضعا في عالمه وشواغل وغاية تجرّه إلى إثبات أخبار عن نفسه والإلحاح عليها وإسقاط أخرى .

بقي أن نجيب على السؤال الثاني وهو : ما هي علاقة هذا التعريف بالرحلة وأثره فيها ؟

إنّ لفظة رحلة قد تعني مجرّد تنقّل من إقليم إلى آخر ومن بلد إلى آخر لغرض ما وقد تعني لونا أدبيّا (64) يقوم أوّلا وبالذّات على علاقة زمنيّة مكانيّة وعلى العيان والتقييد الأمين وعلى عرض الرحّالة خواطره . وتعتبر رحلة ابن جبير أحسن مثال لهذا اللون إذ توفّرت فيها زيادة على هذه المقاييس معطيات تطلعنا على خصائص الأقاليم والبلدان الطبيعيّة وعلى أحوالها الاجتماعية – في مفهوم العبارة الشامل – ودرجتها من التحضّر .

بدأت الرّحلة في « التعريف » منذ خرج ابن خلدون من تونس وقد سجّل المسالك ولو بطريقة عامّة غالبا (65) وعيّن القرى والمدن التي نزل بها وحدّد تاريخ مراحل أسفاره فتوفّرت العلاقة الزمنيّة المكانية ولكننا لا نرى الاّ نادرا وصف قرية أو مدينة ولا نجد ولو إشارة واحدة إلى حياة أهل المدن والبوادي التي زارها . وما قاله عن القاهرة (66) لوحة عامّة تغنّى فيها سجعا بكثرة القصور والأواوين والخوانق والمدارس و« ببحر النيل جابي الثمرات والخيرات » (67) وزحام المارّة في سكك المدينة (68) ثم استشهد بأقوال بعض علماء المغرب المعاصرين له والمعبّرة عن إعجابهم بالقاهرة فكفاه ذلك مؤونة

(64) انظر في نشأة هذا اللون : مختارات من نصوص أهم الجغرافيين العرب (E.G.A.) باريس 1932 لرجيس بلاشير Blachère ص 92... 95 . وأطروحة أندري ميكال (A. Miquel) : La Géographie humaine du Monde Musulman ص 133...152 .

(65) فصل ابن خلدون الكلام عن المسالك في مواضع قليلة من التعريف : ص 56 و 228 و 261–262 .

(66) التعريف ص 246...248 .

(67) هذا الغرض (Thème) قديم تعرض إليه جل ممثلي الجغرافيا الأدبية كابن حوقل والمقدسي .

(68) لاحظ هذه الملاحظة ابن جبير والعبدري .

الملاحظة والوصف الشخصي (69) . وما قيّده عن مدفن الخليل وصف وجيز مقصور على خارج المدفن يتجلّى فيه اهتمامه بالناحية التاريخية إذ يقول : « وهو بناء عظيم على موضع ميلاد المسيح ، شيّدت القياصرة عليه بناء بساطين من العَمَد الصّخور ، منجّدة مصطغّة مرقوما على رؤوسها صور ملوك القياصرة وتواريخ دولهم ميسّرة لمن يبتغي تحقيق نقلها بالتّراجمة العارفين لأوضاعها » (70) . وظنّنا أنّه ما كان ليلحّ على فساد القضاء بمصر وشعوذة المفاتي فيما اصطلحوا عليه من مرضاة الأكابر ومراعاة الأعيان (71) لو لم يصطدم بعدائهم . ومن جهة أخرى لمّا كان تنقّله من ناحية إلى غيرها ومن المغرب إلى المشرق بدافع الطموح السّياسي أو البحث عن السّلامة لا لحبّ الاطّلاع فإنّه لم يسجّل إلاّ ما كان يتّصل بشواغله وحتى المغامرات فهي لا تتجلّى على أنّها غرض ، لذلك قلت الخواطر وخلت العبارة من العفوية .

هل يمكن إذن أن نعدّ جزءا من الكتاب رحلة ؟ إذا تمثلنا برحلة ابن جبير يحقّ أن ننفي عن هذا الجزء لون الرّحلة (72) . لكن لماذا نعتبر ا نذاك « ماء الموائد » للعيّاشي رحلة ؟ الرّأي عندنا أنّ لون الرّحلة اختصّ في طوره الأوّل بذكر البلاد (73) ثمّ ظهر غرض ثان تعلّق بذكر الرّجال ومن الرّحلات التي اعتنت بذكر البلاد رحلة ابن فضلان (74) ورحلة أبي دلف مسعر إلى أرمينيا

---

(69) انظر رأي ميكال في دور الاستشهاد عند الجغرافيين . نفس المصدر ص 172–173 .

(70) التعريف ص 350 .

(71) التعريف ص 258 .

(72) هذا رأي مراد في مقاله : ترجمة ابن خلدون الذاتية بمجلة Ib!a – 1956 – عدد 73 ص 53...64 .

(73) لم يقم وصف البلاد دائما على الملاحظة . انظر مثلا رحلة أبي دلف مسعر الخيالبة إلى بلاد الأتراك والهند ومليزيا . حفظها ابن النديم في الفهرست . علق عليها ميكال في أطروحته ص 139...141 . ومن جهة أخرى فقد لا يهتم الرحالة من البلاد إلا ببعض المعالم حسب غرضه انظر كتاب الزيارات لهروي (المتوفي سنة 1215/611 .

(74) رسالة ابن فضلان تحقيق سامي الدهان . علق عليها كانار Canard في مقدمة ترجمتها وفي الخاتمة . كما علق عليها كراتشكوفسكي [Kratchkovsky] في تاريخ الأدب الجغرافي العربي . ترجمة عثمان هاشم . ص 186–187 وأندري ميكال . نفس المصدر : ص 132...139 .

وإيران (75) ورحلة ابن سليم الأسواني (76) ثمّ رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة . أمّا الرّحلات التي اعتنت بذكر الرّجال فمنها الرحلة في طلب الحديث للخطيب البغدادي (77) ثم رحلة أبي بكر بن العربي الأندلسي (78) ورحلة ابن رُشيد الفهري (79) وماء الموائد للعيّاشي . على أن بعض الرّحلات جمعت القصدين ومنها رحلة العبدري والتجاني والخياري (80) والمقصود بالرّجال رجال العلم والأدب والمتصوّفون وما يلاحظ في هذا الباب هو أن بعض من اهتمّوا بذكر الرّجال لم يقتصروا على الذين التقوا بهم بل زادوا من لم يروه لتقدّم عصره (81) ولبعد شقّته اعتمادا على « أن سماع الأوصاف أحد الرّؤيتين » وعلى أنهم « يكتفون بالأثر لفوات العين » . فالرحّالون من الصّنف الثاني اتخذوا من العلاقة الزمنية المكانية إطارا لذكر العلماء والأدباء والزهاد الذين سمعوا عنهم فَلِمَ لا نعدّ جزءا من مؤلّف ابن خلدون رحلة وقد استغلّ بدوره هذا الإطار لذكر نوع اخر من الرّجال أي السّلاطين والأمراء والوزراء ورؤساء القبائل . فهل نعتبر في حكمنا نوع الرّجال : فإن كانوا من

(75) رسالة أبي دلف الثانية – حققها سامي الدهان – انظر كراتشكوفسكي نفس المصدر ص 187...190 واندري ميكال نفس المصدر ص 141...145 .

(76) حفظ لنا هذه الرحلة المقريزي . انظر كراتشكوفسكي نفس المصدر ص 192–193 .

(77) لم نطلع عليها ولكن عنوانها يدل على غرضها . ذكرها الحاجي خليفة في كشف الظنون ج II ص 1419 والحاج صادق في مقاله الخاص بالورتلاني في B.E.A. عدد 40 – سنة 1948 – ص 201 .

(78) توفي سنة 1148/542 وصلتنا نتف من مؤلفاته باستثناء رسالته « شواهد الجلة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان » وكتاب « العواصم من القواصم » . انظر كراتسكوفسكي : نفس المصدر ص 299 وحسين مؤنس : تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ص 409 وما بعدها . وكذلك «قانون التأويل» حقق جزءا منه إحسان عباس – انظر مجلة الأبحاث السنة 21 – الأجزاء 2 – 3 – 4 سنة 1968 ص 59 فما بعد .

(79) لا تزال رحلته مخطوطا ونرجو أن يتم تحقيقها قريبا . انظر كراتشكوفسكي : نفس المصدر ص 382 ومحمد الفاسي : ابن رشيد ورحلته إلى المشرق – مجلة معهد المخطوطات العربية – القاهرة – الجزء الخامس 1959 ص 31...42 . وقد استغل هذه الرحلة R. Brunschvig في أطروحته : المصدر المذكور .

(80) عنوانها : تحفة الأدباء وسلوة الغرباء – تحقيق رجاء محمود السامرائي – بغداد 1969/1389 لم ينشر إلا جزء واحد من الجزءين . توفي الخياري سنة 1083هـ .

(81) انظر مثلا رحلة التجاني .

العلماء والأدباء والزهّاد أطلقنا على المؤلّف اسم الرّحلة وإن كانوا من أولي السّلطان نفيناه عنه ؟

يبدو لنا أن السّبب الذي قد يدعونا إلى الشك في ثبوت لون الرّحلة في كتاب ابن خلدون هو أن الرحلة لم تكن عنصرا مستقلاّ إذ هي جزء هامّ من الكتاب تتواصل فيه الترجمة الذاتية . لكنّ تلاقح الألوان الأدبيّة أمر طبيعي وفي « التعريف » سهّل اتفاق اللّونين في بعض خصائصهما — أي الامتداد الزمني وكون المؤلف هو الرّاوي — هذا التلاقح — بقي سؤال وهو هل أنّ لون الرّحلة قد ذاب في الترجمة الذاتية أم أنّه غذّى هذه الترجمة دون أن ينحلّ ؟ إذا اعتبرنا أنّ لون الرّحلة يقوم أوّلا وبالذّات على العلاقة الزمنيّة المكانية وعلى العيان مهما كان ميدانه وأن الرحّالة حرّ في ذكر أي صنف من أصناف الرّجال وأيّ نوع من أنواع الأحداث فلا نظنّ أن لون الرّحلة قد انحلّ في التعريف ولكنه تأثّر بشواغل ابن خلدون الذي أراد أن يواصل التعريف بذاته التاريخيّة عن طريق الرّحلة فإذا هذا اللون يقوم بوظيفة جديدة .

صالح المغيربي